وهو من اقدر الناس على الخطابة راوية عارف بتواريخ الامم قوي الحجة فصيح العبارة اذا تكلم اخلب الالباب بعذوبة منطقه وسعة معارفه فيقف سامعوه صامتين مبهوتين كأنهُ مسحرهم سحرًا وهو يتكلم ثلاث ساعات متوالية او اربعًا كلامًا منسجمًا وترى المعاني والالفاظ تساق منقادة اليهِ كأنهُ يتلو شيئًا استظهرهُ . ولهُ ذاكرة تعدُّ من خوارق الطبيعة في قوة حفظها وسهولة استحضار محفوظاتها . ويسهل عليهِ ان يتلو من ذكرتهِ ما يملأ مجلدات كثيرة وان يشرح ما يتلوهُ شرحًا محكمًا يحمدهُ عليهِ اعظم الشراح

وهو قليل الافراط في الاكل والشرب لكن اعتداله لم ينقذهُ من الآفات فانهُ مصاب بالنقرس وقد اشتدَّ عليهِ الداء حتى كاد يوردهُ حتفهُ ثلاث مرات . وقُطع الامل من شفائهِ سنة ١٨٩٤ اما الآن فصارت نوبات النقرس اضعف من ذي قبل . ولو توفي في النوبة الماضية لخلفهُ ابنهُ الاكبر حبيب الله خان . اما هو فلم يعين من يخلفهُ حتى الآن على ما يظن ولهُ ابن صغير من زوجتهِ الَّتي من نسل الدست محمد خان اسمهُ عُمَر خان يريد ان يجعلهُ وليَّ عهدهِ حينما يبلغ سنَّ الرشد ارضاء لامهِ لانها امرأة حازمة تعلم ان في عروقها دم الملوك فلا تألو جهدًا عن بلوغ مأربها وهو حصر الوراثة في اولادها

القتل والعمران

دع رجال القانون ورجال الشورى يبحثوا عن صحة الاخذ بالقرائن في اثبات جريمة القتل على القاتل او الاقتصار على اقرارهِ وشهادة الشهود كما هو جارٍ في القطر المصري الآن وهلمَّ نبحث في امر اخرى من بحثهم برجال العلم والفلسفة وهو السبب الفطري الذي يدعو الانسان الى قتل ابناء نوعهِ وهل هو قاصر عليهِ او عام لطوائف الحيوان وماذا كانت نتائجهُ حتى الآن وما هو مآلهُ في مستقبل الازمان

اشرنا في مقالة سابقة موضوعها تخاوف الموت الى ان اسدًا وثب على لفستون الرحالة الافريقي والقاهُ صريعًا ثم تركهُ حيًّا يخبر بما جرى لهُ ويعرب عمَّا شعر بهِ في تلك الغطة الرهيبة وابو الحارث فوق رأسهِ وشمالهُ ناشبة في اعضائهِ . وهاك شرح الحادثة كما تلقاهُ عن لفستون نفسهِ ونشرناهُ في جريدة اللطائف منذ تسع سنوات

" وجدنا الاسود على اكمة صغيرة طولها نحو ربع ميل وهي مغطاة بالاشجار . فاصطفَّ

الرجال حول لاكة وجعلوا يضيّقون فيه وتضيق حلقتهم كلما صعدوا وبقيتُ انا عند صخر ومعي واحد اسمهُ مبالو وهو رجل هام فرأيتُ اسدًا رابضًا على صخرة ضمن دائرة الرجال فرماهُ مبالو بالرصاص فاخطأهُ واصابت الرصاصة الصخر فتفتتها كما يفعل الكلب حجرًا رُمي بهِ . ثم خرج من بين الرجال ونجا وخاف الرجال منهُ لم يرموهُ بالرصاص ولا بالحراب . ولما انضمت حلقتهم ثانيةً رأينا في وسطها اسدين آخرين ولكن لم نرمهما بالرصاص مخافة ان نصيب الرجال فخرجا من الحلقة سالمين وكان يجب على الرجال ان يرموهما بالحراب على جاري عادة البلاد ولكنهم لم يفعلوا . ولما رأينا ذلك رجعنا عن اعتابنا وبينما نحن راجعون رأيتُ اسدًا رابضًا على صخر وكان بيني وبينهُ نجم غيرُ وهو بيني على ثلاثين يردًا فشددتُ بندقيتي اليهِ واطلقتُ عليهِ رصاصتين معًا فصرخ الرجال أصيب اصيب وقال غيرهم هلمَّ اليهِ فقد رماهُ انسان آخر . اما انا فلم أرَ احدًا غيري رماهُ بالرصاص ولكني رأيتهُ شالًا بذنبهِ من الغيظ فالتفتُّ الى الرجال وقلتُ لهم تمهَّلوا حتى احشو بندقيتي ثانيةً وفيما انا احشو البندقيةَ سمعتُ صرخة شديدة فالتفتُّ واذا الاسد يتهيأ للوثوب عليَّ وكنتُ على عدوة من الارض فوثب ومسكني بكتفي فوقعنا على الارض معًا وزأر في اذني زئيرًا مرعبًا وكنتُ في يدهِ كالقارة في يد المرَّة واصابني للوقت شيءٌ من الاغماء فلم اشعر بألم ولا بخوف ولكنني كنتُ اسمع وارى كل ما حولي . ودرتُ رأسي قليلًا من تحت يدهِ فرأيت عينيهِ شاخصتين الى مبالو (المذكور آنفًا) وكان آخذًا في تسديد بندقيتهِ اليهِ على نحو ١٥ قدمًا ثم اطلق عليهِ الرصاص فاخطأهُ فتركني ووثب عليهِ ونهشهُ في فخذهِ ولحال حاول احد الرجال ان يطعنهُ برمحهِ فترك مبالو وهجم على هذا وقبض على كتفهِ وكانت الرصاصتان الثنتان رميتهُ بهما قد فعلتا بهِ حينئذٍ فوقع قتيلًا "

اسدٌ يُرمَى بالرصاص فيهجم على الرامي وهو يستطيع ان يدق عنقهُ بضربة واحدة لو اراد قتلهُ لكنهُ لا يفعل ذلك بل يتركهُ حيًّا ويهجم على غيرهِ ولا يدق عنقهُ كما يفعل بالغزال والثور بل ينهشهُ في فخذهِ ثم يتركهُ ويهجم على رجل ثالث وينهشهُ في كتفهِ

والذين صادوا الاسد في بلاد الاسود وخبروا طباعهُ يقولون انهُ اذا وثب على حيوان ليفترسهُ قبض على عنقهِ فكسر فقراتها باسنانهِ وناتهُ حالًا . فهل يفعل ذلك عن رويَّة عالمًا ان كسر الفقرات العنقيَّة يميت صاحبها كما يفعل الانسان اذا سدَّد بندقيتهُ على قلب خصمهِ لا على رجلهِ . كلَّا بل المرجح انهُ يفعل ذلك بغريزة موروثة فيهِ اصلها ان اسلافهُ وجدت بالاختبار ان القبض على عنق الحيوان يمنعهُ من المقاومة فيقبض على عنقهِ لكي يسهل عليهِ

افتراسهُ . ولا يفرق حينئذٍ بين الحياة والموت اي لا يلوح في بالهِ ان هذا الحيوان كان حيًّا فلما دققت عنقهُ مات بل غاية ما في الامر انهُ يكون جائعًا فاذا رأى فريسة هجم عليها آليًّا كلما وقد عملهُ الاختبار وعلَّم اصلافهُ من قبلهِ ان مسك الفريسة من عنقها اسهل السبل لافتراسها والاَّ فلو كان قصدهُ قتل الفريسة بدق عنقها لدقَّ عنق الثيران وفرائيسهِ ولم يكتفِ بنهش اعضائهم وانما فعل ذلك دفاعًا عن نفسهِ واظهارًا لحنقهِ ولو لم يصبهُ رصاصهم لتركهم وولَّى مدبرًا كما يفعل عادة فانهُ يهجم على الصائد وينهشهُ ويتركهُ فاذا اصاب منهُ مقتلاً حينما هجم عليهِ قتلهُ والاَّ تركهُ حيًّا . وتخالب الاسد قاطعة كالمواسي وانيابهُ احد من الخناجر ولكنهُ قد يهجم على الصائد ويرميهِ على الارض ويرتدُّ عنهُ من غير ان يجرحهُ . ذكر مونيه العالم الفرنسوي ان اسدًا هجم على رجل فرضض جسمهُ ونهش ذراعهُ ثم تركهُ وليس بهِ جرح يخشى منهُ وذكر دلاغورغ ان اسدًا هجم على صائد فكسر ذراعيهِ . وهجم عليهِ اسد آخر بعد ست سنوات وعضهُ في ستة اماكن ومزق جلدهُ بمخالبهِ ولكنهُ لم يقتلهُ وان رجلاً رأى لبوة فاطلق عليها الرصاص فوثبت عليهِ وصرعتهُ ورآها ضربت شدقيها وتحققت اصلاعهُ بانيابها ثم تركتهُ مضرَّجًا بدمائهِ ووُجد حيًّا وليس بهِ الاَّ عضة واحدة

فهذه الامثلة تدلُّ دلالة واضحة على ان الاسد لا يعلم مقدار قوتهِ ولا انهُ يقدر ان يقبض على عنق الانسان فيدقها وعينهُ بامرع من لمح البصر والاَّ فلو كان يدرك ذلك ويقصد الانتقام من خصمهِ لما ابقى على احدٍ حيًّا من الذين يتهجمون عليهِ وقد كادوا يقرضونهُ عن وجه البسيطة لكنهُ غضوب جرود مثل غيرهِ من الضواري واذا هاج غضبهُ نشبهُ بخمش خصمهِ او نهشهِ كما يفعل القط والكلب

وما يصدق على الاسد يصدق على النمر فانا نعرف فتاتين رأيتا نمرًا بقرب صحراء الشويفات في ساحل بيروت فاخذتا ترشقانهِ بالحجارة فاحتدم غيظًا ووثب عليهما واثخنهما بالجراح وتركهما على هذه الصورة وعولجت جراحهما فشفيتا . ورآهُ رجل فاطلق عليهِ بندقيتهُ فوثب عليهِ وجرحهُ في رأسهِ وتركهُ حيًّا ثم كثر عليهِ الناس وظلوا يرمونهُ بالرصاص إلى ان قتلوهُ وكان من اكبر النمور واشرسها ولو هجم على خروف او ثور لقتلهُ بعضة واحدة فلو كان يعلم من نفسهِ حقيقة القتل وانهُ قادر ان ينتقم من خصمهِ لما ابقى على الفتاتين والرجل الذي أطلق عليهِ الرصاص لكنهُ غضوب مثل الاسد وان شئت فقل مثل الاطفال فيمض من بغضهِ لينفس كربهُ

واذا ارتقينا من الضواري الى اعلى انواع القرود كالغورلا والأُران اوتان رأينا انها

لا تدرك معنى القتل والموت قال المسيو فرو في جريدة العلم العام الاميركية انهُ لو درى الغورلاَّ ماهية الموت وكيفيَّة ايقاعهِ بالانسان ما نجا منهُ انسان من القتلى يقعون في يدهِ فقد كان يرهم الرحالة الشهير ان ضربةً واحدة بقدم الغورلاَّ تبقر بطن الانسان او تشق صدرهُ او تشدخ رأسهُ لكن كثيرين يقعون في يدهِ ويخرجون منهُ سالمين بعد ان يوقع بهم ويجتهم بالجراح مع انهم يكونون قد رموهُ بالحراب او اطلقوا عليهِ الرصاص والنَّبلَ كثيرًا فتركهُ لهم احياء وهو قادر ان يميتهم بضربة واحدة يدلُّ دلالة قاطعة على انهُ لا يدرك معنى الموت ولا يضرب ليميت بل يضرب نشأً لغضبهِ فان اصابت ضربتهُ مقتلاً قتلتْ والاَّ فلا

ويؤيِّد ذلك ان ذكور الغورلاَّ تقتتل كثيرًا وقت المزاوجة ومع ذلك لا يقتل بعضها بعضاً ولم يوجد منها ذكر قتيلاً نهاية ما يفعلهُ الذكر القوي انهُ يأخذ الانثى ويدفع عنها سائر الذكور . وقد لا يستطيع دفعها الاَّ بعد ان يجتها جراحاً بانيابهِ لكنهُ يعضها كيفما اتفق غير قاصد مقتلاً منها دلالة على انهُ لا يقصد قتلها ولا يدرك معنى القتل والاَّ لفعل

وذكر برهم ايضاً ان كلباً تبع بابوناً (وهو من اكبر انواع القرود) ليمسكهُ فارتدَّ البابون عليهِ بغتةً ووثب عليهِ وهو يزأر زئيرًا مرعباً وجعل يخمشهُ بمخالبهِ في صدرهِ وعنقهِ ويعضهُ هنا وهنالك وجعلا يتمرَّغان على الارض والبابون ينهش الكلب نهشاً بانيابهِ كيفما اتفق واخيرًا تركهُ مضرَّجاً بدمائهِ وولَّى هارباً وصعد على الصخور وهو يصيح صياحاً مزعجاً فهذا البابون وهو من اقوى انواع القرود لو شعر بقوتهِ واراد قتل خصمهِ لشدَّ بيديهِ على عنقهِ فخنقهُ في لحظة من الزمان ولكنهُ لم يفعل بل اكتفى بعضهِ وخمشهِ كيفما اتفق لهُ كانهُ غير قاصد غرضاً معيناً وهو قتل خصمهِ

ولا يمكن الحكم البات بان الحيوانات كلها خالية من ادراك معنى القتل ولكن استقراء احوالها لا يثبت ما يناقض ذلك حتى الفيل الذي يغضب على الانسان ويرفعهُ بخرطومهِ ويدوسهُ برجلهِ لا يقصد اعدامهُ الحياة لانهُ قد يتركهُ حيًّا . ومن المحقق ان الحيوانات حتى ارقى طوائف القرود لم تستعمل واسطة حتى الآن لقتل خصومها الاَّ اذا صحَّ ما يروى عن الدب وهو انهُ يرشق الانسان بالحجارة

قال فرازر ويرجَّح ان الانسان هو الحيوان الوحيد الذي ادرك معنى القتل وفرَّق بين الحياة والموت والظاهر ان هذا الادراك نشأ فيهِ حالما صار نوعاً قائماً بنفسهِ فاكتشف الوسائط التي تعدم الحيَّ الحياة وهذا اعظم اكتشاف اكتشفهُ الانسان لانهُ تغلَّب بهِ على الحيوانات التي تفوقهُ قوةً واستأثر بالسيادة على المكونة ثم قرَّض توبتهُ ضيفهُ فلم يبقَ من الناس الاَّ

امهرهم في صيد الوحوش واقدرهم على قهر خصومهم ومناظريهم وهٰذا هو تنازع البقاء الاول

واذا امعنت نظرك في طبائع المتوحشين الذين يمثلون احوال الناس كلهم وهم على الفطرة الاولى رأيت ان مدلول القتل متغلب عليهم حتى انهم لا يصدقون بالموت الطبيعي كما ذكر في الكلام على سكان استراليا الاصليين في هٰذا الجزء فاذا مات واحد منهم بمرض او بآفة أخرى طبيعية قالوا ان واحداً من اعدائهم قتلهُ بسحرهِ ولذلك اذا مات واحد منهم ذهب وليُّ دمهِ إلى القبائل المعادية ليأخذ بثأرهِ ممن يظن انهُ اماتهُ

وغنيٌّ عن البيان ان ارتقاء نوع الانسان في العصور الغابرة كان متجهاً بالاكثر إلى استنباط آلات القتل ووسائل الدفاع. وقد كرَّت القرون وقريحتهُ تزيد مهارة في استنباط وسائل القتل واتقانها. واعظم الدول شأناً الآن واكثرها بسطة حال هي ٱلَّتي يخشى بأسها في القتال

فادراك الانسان حقيقة الموت واكتشافهُ لوسائط القتل هما العلة الكبرى لتغلُّبهِ على المجاورات وفوزهِ في تنازع البقاء وارتقائهِ في معارج العمران. وقد ملَّ قتلاؤهُ الآن حمل السلاح وتجنيد اليالق وتعبئة الاساطيل واخذوا ينادون بابدال ذلك كلهِ بمحاكم دوليَّة تفصل ما بين الدول من الخلاف بالتحكيم لكنَّ ذلك لا يتمُّ ما دام الطمع غريزة في الانسان وما دامت ممالكهُ مختلفة في القوة والضعف. فاما ان تصير المسكونة مملكة واحدة او ممالك متساوية تماماً او تتغير غرائز الناس وذلك كلهُ مما لا يتمُّ في حول او حولين بل لا بدَّ لهُ من قرون طوال اذا كان العمران سائراً اليهِ

باب الزراعة

زرع شجر التوت (١)

يزرع شجر التوت إما بزراً واما عقلاً واما ترقيداً فزراعة العقل والترقيد اقرب نموًّا ولكن التوت المزروع بزراً يكون اطول عمراً لذلك يفضلهُ اكثر المزارعين في كل البلاد حتى ان اهالي بر الشام لا يعتمدون الاَّ عليهِ ثم ان من اراد زراعة الشيء الكثير من التوت تقلَّ يتيسر لهُ ذلك بغير البزر

(١) من كتاب زراعة التوت وتربية دود الحرير تأليف حضرة خطار افندي ثابت وقد طبع حديثاً في مطبعة المقتطف بمصر